للاك

مجلة النكبة التي لم تنتهِ

نحو عودة لاجئين فلسطينيين
العدد ٦، أيار ٢٠١١

مشهد عودة

نينا فاليري كولورانتيك
ترجمه عن الانجليزية: محمد جبالي

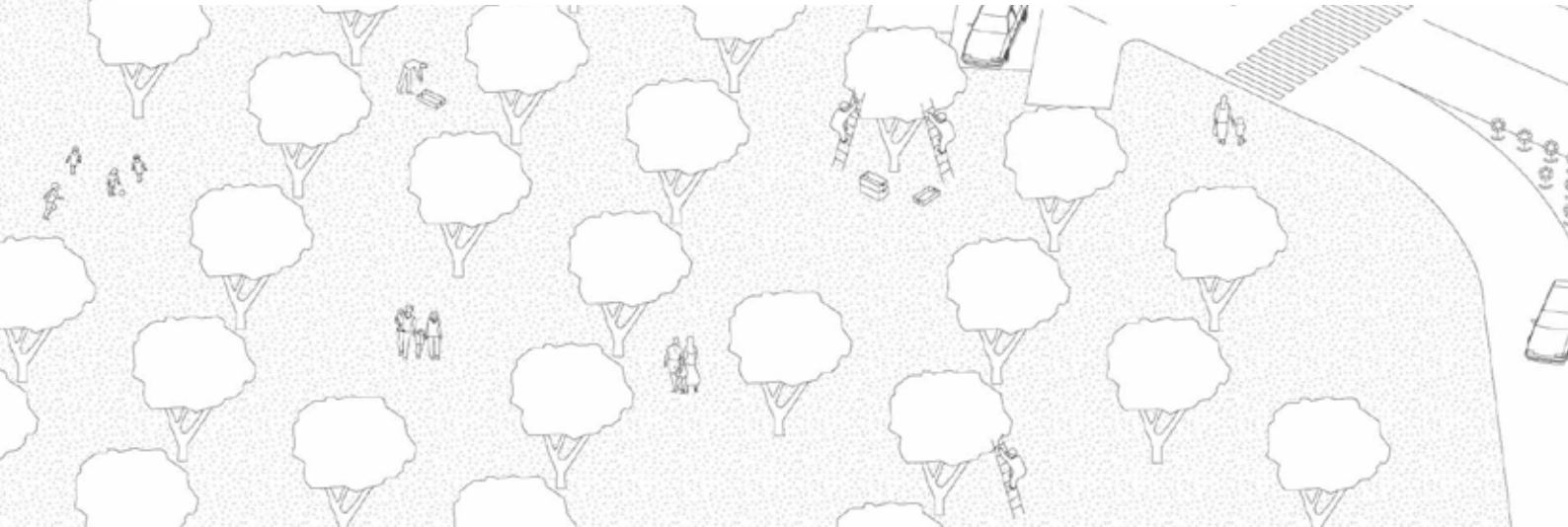

لقد دار الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني منذ البداية داخل المشهد الطبيعي، بجغرافيته وحدوده. لذلك فإن سلب الأملاك، الكتابة المجددة والمطالبة بالأرض هي أمور تقع في لب الصراع. يكشف تحليل الطبقات المرئية وغير المرئية التي ترسم المشهد الطبيعي الآني جغرافية المكان كميدان معقد لقوى مكانية وسياسية، حيث تم كتابة مشهد فلسطين من جديد على يد الحاضر الإسرائيلي.

إن وجود طبقات متعددة في مدلول الجغرافيا الإسرائيلية-الفلسطينية الراهنة، بالإضافة إلى اليقين بأنّ أيّ عودة سوف تتمّ إلى واقع شُكّل مجدداً وغُيّر فضاؤه، يعني أنه يجب علينا أن نتعمد العمل مع المشهد الموجود حالياً، رداً على شكله ومبناه. حيث أن المشهد الراهن يجب أن يُتحَدى، يُعَرّف من جديد أو يُهدَم. إذا كانت الطبيعة تستعمل حتى الآن كوسيلة لإخفاء ماضٍ غير مرغوب فيه، فالآن يجب على هذه التكتيكات أن تُقلَب. على الطبيعة أن تستعيد وتجعل ذاك الماضي بعينه مرئياً. بعكس الوضوح التذكاري لماضٍ تم بناؤه (مجدداً)، فإن بالمشهد قوة كامنة، لها تأثير أكبر وأكثر خفاءً على كيفية إدراكنا للمكان. بناءً على هذا يجب ألا يكون الهدف هو إعادة بناء أو إسقاط الماضي من جديد على الحاضر، وإنما عودة كعملية متواصلة تحدث في الوقت الراهن.

يجب ألا تتقلص العودة المكانية إلى ذكريات رمزية، أو إلى بناء مجدد للقرى القديمة بتصميمها الأصلي. فإن ذلك سيتجاهل، ببساطة، الستين سنة الأخيرة من التاريخ وسينكر الواقع الراهن والظروف المتتابعة فيه إلى يومنا هذا. تعتبر طبقة الماضي نقطة مرجعية مهمة ونقطة انطلاق للعودة إلى أرض أصبحت مع مرور الزمن غريبة. إلا أن عملية العودة المكانية يجب أن يكون هدفها التأكيد على أن يصبح الماضي في نهاية المطاف ماضياً فعلاً، وأن يستطيع اللاجئون الفلسطينيون، مرة أخرى، بدء الحياة في الحاضر.

خلافاً للعديد من القرى الفلسطينية المدمرة التي تم تسييجها أو زراعة الغابات فوقها، ما زالت أراضي كفر عنان الزراعية المصادرة تستعمل طبقاً لهدفها الأصلي، ويتم حتى اليوم استغلالها بفاعلية. تتم اليوم زراعة أراضي قرية كفر عنان الفلسطينية الواقعة في الجليل من قبل كيبوتس وقريتين تعاونيتين إسرائيليتين (رسم ١). لقد تم استبدال تقسيم الأرض إلى حقول صغيرة ومتنوعة بمشهد يحتوي على حقول كبيرة ومزروعة بشكل مكثف(رسم ٢). على الرغم مما يبدو لأول وهلة ككتابة جديدة كلياً للمشهد، فإن التمعن عن قرب يبيّن العديد من التوافقات ما بين التقسيم الجديد والتقسيم القديم للحقول. كل تلك الأماكن التي لا نجد لها اليوم أي مبرر، لا من ناحية منطقية ولا من ناحية التضاريس الطبيعية، لانحرافها عن التقسيم العامودي المضبوط، تجعل من الضروري أن نبحث عن السبب في الماضي.

تظهر، بشكل خاص، الحدود الخارجية لأراضي القرية المسلوبة

وكأنها قد وشمت في المشهد. وبشكل مناقض للجغرافيا السياسية، لربما تم هنا انتزاع المشهد من الذاكرة لكن ليس من ماضيه. العلامات على هذا الماضي ما تزال واضحة. واضحة وإن كانت لا تُرى بالعين. (رسم ٣.)

لو أخذنا بعين الاعتبار أن عملية عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى إسرائيل ستتخذ العديد من الأشكال والصور، وأن عودة جارفة باتت إمكانية مستبعدة بعد ستين سنة،[١] عندها يصبح من الضرورة توفير طيف واسع من امكانيات العودة. من أجل تطوير استراتيجية باستطاعتها استخدام أنماط استعمال الأرض في الماضي والحاضر لتقترح عدة نماذج ممكنة للعودة، والسماح للعائدين بتأسيس علاقتهم المتجذرة والأصيلة مع الأرض مرة أخرى، طورت مفهوماً معيناً من أجل إعادة استعمال وإعادة تطوير الأراضي الزراعية لقرية كفر عنان.

المنطقة المختارة والجاري تطويرها لاستراتيجية العودة هذه لا تلتزم بالحدود القديمة للقرية.[٢] الإستراتيجية المرسومة هنا تحوي فقط المناطق التي يبدو فيها تغيير المشهد الحالي واقعياً ومثمراً. أراضي القرية في أيامنا تستعمل لأهداف متفرقة ولا تحمل مشخصات موحدة. من أجل خلق رابط واضح، وللإشارة إلى أبعاد أراضي القرية الأصلية، تم – عمداً - اختيار مساحات على شمال وجنوب الشارع الرئيسي كمنطقة تخطيط، تجمعها وظيفة مشتركة ومفهوم مرئي موحد. من الجانب الشمالي، تم اختيار النهر كخط قاطع، تقع الحقول المستعملة بأشكال متنوعة على طوله. من الجانب الجنوبي، في المرج، الحقول مصفوفة بمحاذاة درب مركزي قد تمت كتابته من المشهد. ساحة القرية سابقاً، والتي تقع اليوم على الشارع الرئيسي، تم إعادة إحيائها لتكون المدخل الرئيسي إلى المشهد المثمر الجديد (رسم ٤،٥).

دُمجَت طبقات الماضي داخل الفكرة حينما كانت ذات أهمية للاستعمال ولبناء مشهد العودة (رسم ٦). بل أكثر من ذلك، بعض نواحي الذكريات الحالية عن القرية وأرضها، والتي جعلها حسن محمد منصور، الذي عاش في كفر عنان حتى جيل الخامسة عشرة،

١ Sari Hanafi, 'The Sociology of Return; Palestinian Social Capital, Transnational Kinships and the Refugee Repatriation Process', in Eyal Benevisti, Chaim Gans, and Sari Hanafi (eds.), Israel and the Palestinian Refugees (Berlin, Heidelberg, and New York: Springer Verlag, 2007), pp. 3–40.

٢ لم يكن الغرض من تركيزي فقط على جزء من القرية وأراضيها التشكيك أو عدم الاعتراف بحق ملكية اللاجئين على كل الأرض المصادرة. إلا أن اختيار هذه المنطقة لتخطيط العودة فرضته الحاجة لتطوير استراتيجية عودة تتعامل مع محو تاريخ القرية من جهة، ومن جهة أخرى مع التغيرات الحديثة التي طرأت، في منطقة زراعية يمكن استعمالها بأشكال جديدة ومتنوعة.

وهو ابن مختار القرية، مرئية في خرائط ذكرياته، ستكون حاضرة في مراحل بناء الفكرة وفي المراحل النهائية لهذه الإستراتيجية.

إن مفهوم مشهد العودة يوحد بين أشكال عدة من الاستصلاح الزراعي واستعمال الأرض بطريقة تجعل من الحقول مختلفة الأحجام والمنتجة لمنتجات زراعية مختلفة أمراً ممكناً، كما سيسمح بوتيرة استعمال متنوعة من قبل المستخدمين. الأنماط الزراعية الملائمة للمتطلبات الشخصية أو للاستعمال العام أو التجاري يمكن تحصيلها بدرجات متفاوتة من الجهود، وهذه بإمكانها تلبية احتياجات متعددة ناتجة عن تنوّع ممارسات عودة اللاجئين (رسم ٧). "بستان الخضروات الدائم"، على سبيل المثال، بإمكانه تغطية احتياجات عائلة بأكملها باستخدام ١٠٠ متر مربع فقط ويمكن قطفها على مدار السنة. ويتطلب العناية الدائمة من المستخدم بسبب الاحتياجات الزراعية المتواترة وفترات القطف والزراعة المتعددة.

هذه الحدائق الخاصة لا تفصل بواسطة الأسوار بل بدروب مشي. لكل ثلاثين حديقة تقريباً، ستكون قطعة أرض شاغرة تستعمل كمخزن ومُنشأة للتسميد. أدوات العمل، البذور، السلال والأوعية يمكن حفظها في المخزن. ستكون قطع الأرض الشاغرة موصولة بالمحور المركزي بواسطة مسالك واسعة بما فيه الكفاية لتوفير نقل الشحنات ولإيصال المحصول إلى البيت.

"بستان خضروات للعطلة الأسبوعية" هو أكثر مرونة بما يتعلق بتقسيم الأرض وبما يتعلق بالأنماط الزراعية. بإمكان المستخدم أو المستخدمة الحصول على العدد الذي يريد من قطع الأرض المفروزة لمساحة ٤X٤ حسب احتياجاته أو احتياجاتها. فيمكن ضمّ عدد من القطع إلى بعضها البعض بحيث تلغي الممرات الداخلية الفاصلة بينها، منتجة مزيجاً كبيراً من أنماط الاستخدام ومشهداً لبستان ذي تنوع ملحوظ. قد يتعذر على بعض المستخدمين التواجد في بساتينهم أسبوعياً، ولربما تسنح لهم الفرصة مرة في الأسبوعين. لتوفير هذا، بالإمكان استئجار بستانيّ ليسقي الأرض ويعتني بالأتلام. بينما يمكن استخدام البستان الدائم من قبل عائلة واحدة على مدار عدة سنين، يتوجب بالنسبة لبساتين العطلة الأسبوعية أن يُتخَذ قرار جديد كل سنة بشأن توزيعها وزراعتها. في بداية كل موسم زراعة، سيتم تبادل البذور والقيام بمهرجانٍ زراعي تتم فيه إعادة توزيع الحصص.

نمط آخر من الاستعمال الفعلي للأرض وبتواتر أقل هو "البيارة المشتركة". حيث تتم العناية بالبيارات من قبل بستانيين بوظيفة كاملة، إلا أن قطف الثمار يمكن أن ينفذه أي مستخدم، حتى أولئك الذين لا يزورون المنطقة إلا نادراً ولكنهم رغم ذلك يرغبون أن يكونوا جزءاً من مشهد العودة. هنا ستتم زراعة الأشجار بقطع فضفاضة مساحتها ٧X٧ متراً مربعاً، حيث تصبح البيارة مكان تنزه ممتعاً بأوقات الفراغ، مثل جولة بالبساتين بعد الانتهاء من العمل، أو نزهة مع العائلة في العطلة الأسبوعية. لن تزرع الأشجار بأسراب كثيفة ومرتبة، ولن تهذَّب بربطها بأوتاد، بل ستترك لتنتشر بشكل طبيعي ناثرةً ظلها المضياف.

هكذا تصبح مثل هذه البيارات المشتركة مكاناً جذاباً لتمضية الوقت حين تزهر الأشجار وحين تنضج الفواكه وحين القطاف. بشكل متعمد، لا توجد ممرات محددة في البيارات المشتركة. بهذا الشكل يستطيع الزائر اختيار طريقه بحرية تامة، كما لو أنه ببيارة خاصة وليس في حديقة عامة مع ممرات محددة. هذا التفصيل الصغير لا يهدف فقط لإتاحة التنزه بحرية بين الاشجار واختيار مكان الجولة المناسب بلا قيود، وانما يهدف أيضاً للتربية على شعور بالانتماء، علاقة مع مكان تستعمله وتزوره بحرية. هذا يشكل أهمية خاصة بالنسبة للزوار الذين لا يملكون بستانهم الخاص. من خلال المساعدة في القطف والتجوال بين البيارات كيفما يهوى، سينتاب الزائر/ة شعور بأنهم ضيوف مرحب بهم. حتى لا تتعفن الثمار التي لم يتم جنيها، فستقطف كلها بعد موعد محدد مسبقاً على يد البستانيين لتباع في السوق الموسمية في المدخل الرئيسي.

بعكس بساتين الخضار الدائمة وبساتين العطلة الأسبوعية والبيارات المشتركة، ستكون حقول وبيارات المزارعين الصغار معدّة بشكل رئيسي لأهداف تجارية. " كروم الزيتون وبيارات المزارعين الصغار" ستكون مخصصة للاستعمال الشخصي من قبل مزارعين يبيعون منتوجهم في السوق المحلية. أينما يفيض النهر فوق الأرض في الموسم، سوف يستمر العمل في قطع الأرض المفروزة للأشجار بمساحة ٧X٧ متراً مربعاً. ويمكن خلال الأشهر الماطرة زراعة الخضروات بين الأشجار. نتيجة لذلك ستبقى هناك حاجة لطرق زراعية ودروب ترابية للبساتين والبيارات الخاصة، وهكذا يكون الفرق بين الأرض الزراعية المشتركة وبين الأرض الزراعية الخاصة واضحاً للزائر، حتى لو لم يكن هناك سياج.

ستكون مساحة "حقول المزارعين الصغار" ٣ هكتارات لكل حقل. وهي محاطة بالطرق اللازمة لتسهيل وصول الآليات الزراعية، و التي ستشكل أيضاً شبكة الطرق العمومية في هذه المنطقة. هذه الحقول هي أكبر المناطق المزروعة، مع أصغر عدد من المستعملين وأقل حاجة للعمل المتواصل (أكثر بقليل من الحراثة، الزراعة والحصاد).

بساتين الخضار الدائمة وتلك الخاصة بالعطلة الأسبوعية، بالإضافة إلى البيارات العمومية ، كلها مرتبة حول ثلاث مساحات كبيرة "مفتوحة وعمومية". يمكن استعارة أدوات ومعدات الزراعة والبستنة من المخزن الموجود هناك. المساحة العمومية والتي تمتد شمال الطريق الرئيسي، حيث كانت ساحة القرية في الماضي، تشكل بنفس الوقت المدخل الرئيسي للمشهد المثمر وكذلك لأطلال القرية القديمة، ويتم

دخولها عبر كرم لوز عمومي. يقوم في المساحات العمومية أيضاً سوق للمنتوجات الموسمية ومركز معلومات (حيث يمكن تسجيل شحنات وطلبات الخضار وحجز خدمات البستانيين ، وما إلى ذلك). وبما أن كل المساحات العمومية محاطة بالبيارات المشتركة، فبالإمكان زراعة أشجار الفاكهة بالبيارات بترتيب تدريجي تصبح فيه أقل كثافة كلما اقتربت من المساحة العامة. بهذا الشكل ستكون حدود المساحة العامة معروفة فقط بواسطة الاختلاف في ترتيب الأشجار.

من خلال التقسيمات والزراعة المتباينة، وكذلك من خلال التماشي مع المميزات التضاريسية والبنيوية، سيكون المسطح الجديد مميزاً عما حوله من مسطحات أحادية الزراعة وعامودية التقسيم، تلك المسطحات التي حدد موقعها وترتيبها الطولي سعياً وراء أكبر كميات من المحصول وملاءمتها للماكنات الزراعية. تركيز العمل، في الوقت الراهن، على قمم التلال المحيطة يقابله مشهد جذاب ومثمر في المرج (رسم ٨، ٩ و ١٠). إن الكسر الواضح في المشهد لا يكشف الاختلاف باستعمال الأرض فحسب، بل أيضاً يكشف ماضياً آخر (يختلف عن الذي تتم الدعاية له اليوم). هكذا، فإن مشروع طمس الماضي بواسطة محمية طبيعية ينقلب إلى عملية كشف للماضي بواسطة طبيعة منتجة.

إن المظهر الجديد للطبيعة يتحدّى الناظر إليه. فهو يحفزه للبحث عن سبب الاختلاف وبنفس الوقت يتيح له أو لها برؤية المنظر الطبيعي ثانية كمشهد مصمم ثقافياً. إن مفهوم مشهد العودة، كما بني على نموذج كفر عنان، يجمع بين ممارسات فردية لعودة اللاجئين ومشهد منتج من أجل تحويل واقع الغياب المتواصل إلى عملية حقيقية في الزمن الحاضر، وبهذا يقدم واحداً من مفاهيم عديدة لعودة اللاجئين يجب أخذها بالحسبان.

إن إنشاء قاعدة لنقاش حقيقي مبني على فهم المشهد كما هو في الوقت الراهن لهو أمر ضروري لدفع التطور المتواصل في الخطاب الداخلي، وأيضاً لتطوير النقاش حول عودة اللاجئين بين الإسرائيليين والفلسطينيين. إن مشهداً يأخذ بالحسبان التغييرات الحتمية التي جرت على مدار السبعين سنة الماضية، وبالإضافة إلى ذلك يكشف عن فلسطينية المكان من حيث المظهر والجوهر، هو الوحيد الذي يمكنه توفير عودة اللاجئين إلى ما هو في الوقت الراهن إسرائيل.

هذا المقال يستند على أطروحة بموضوع الهندسة المعمارية "كفر عنان: صور للحضور في مشهد الغياب. إعادة قراءة مكانية لمسألة اللاجئين الفلسطينيين". بقلم: نينا فاليري كولوراتنيك، جامعة غراتس للتكنولوجيا ٢٠١٠.

رسم ١. بيارات المستوطنات الإسرائيلية كما تشاهد من موقع أطلال كفر عنان

رسم ٢. أراضي قرية كفر عنان سابقاً، مع مقارنة لمستوى التحصيل الزراعي وتقسيم الحقول واستعمالها بين السنوات ١٩٤٤ و ٢٠١٠

Field division 1942

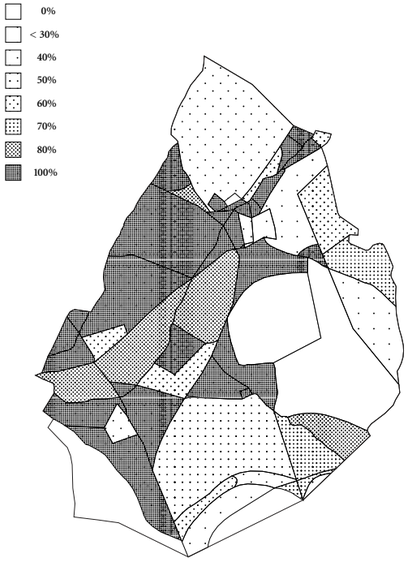

Intensity of cultivation 1942

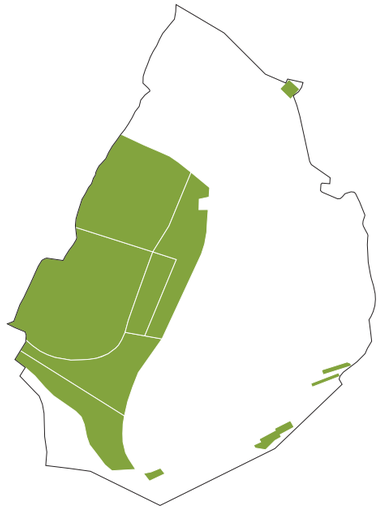

Field division 2010

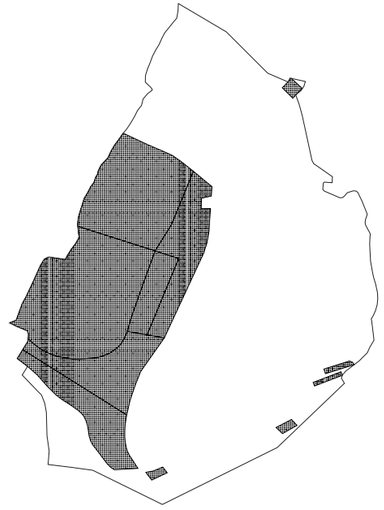

Intensity of cultivation 2010

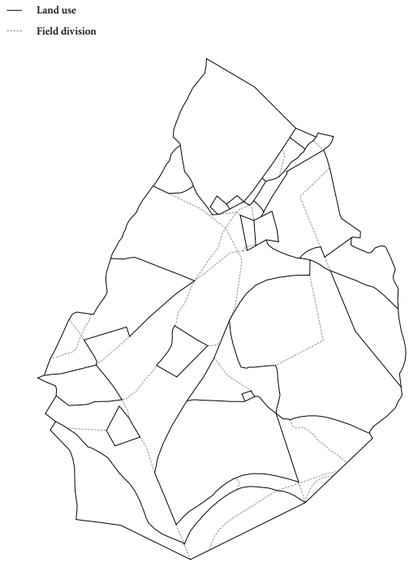

Field division and land use 1942

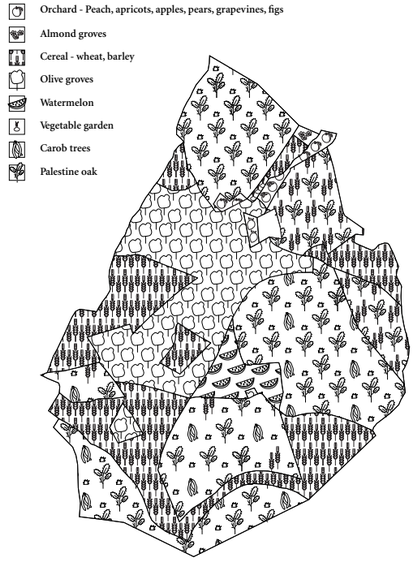

Land use 1942

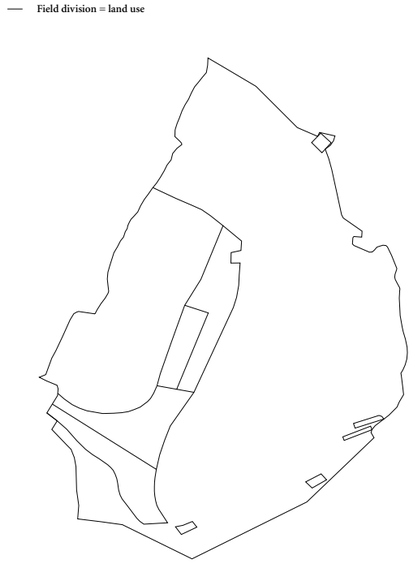

Field division and land use 2010

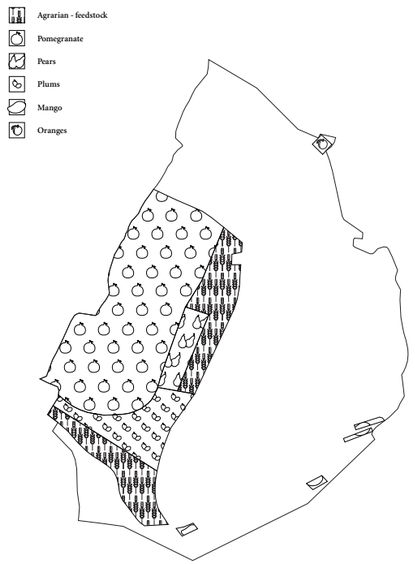

Land use 2010

رسم ٣. خارطة بريطانية لمسح الأراضي، ١٩٤٢

وشبح الحاضر، ٢٠١٠

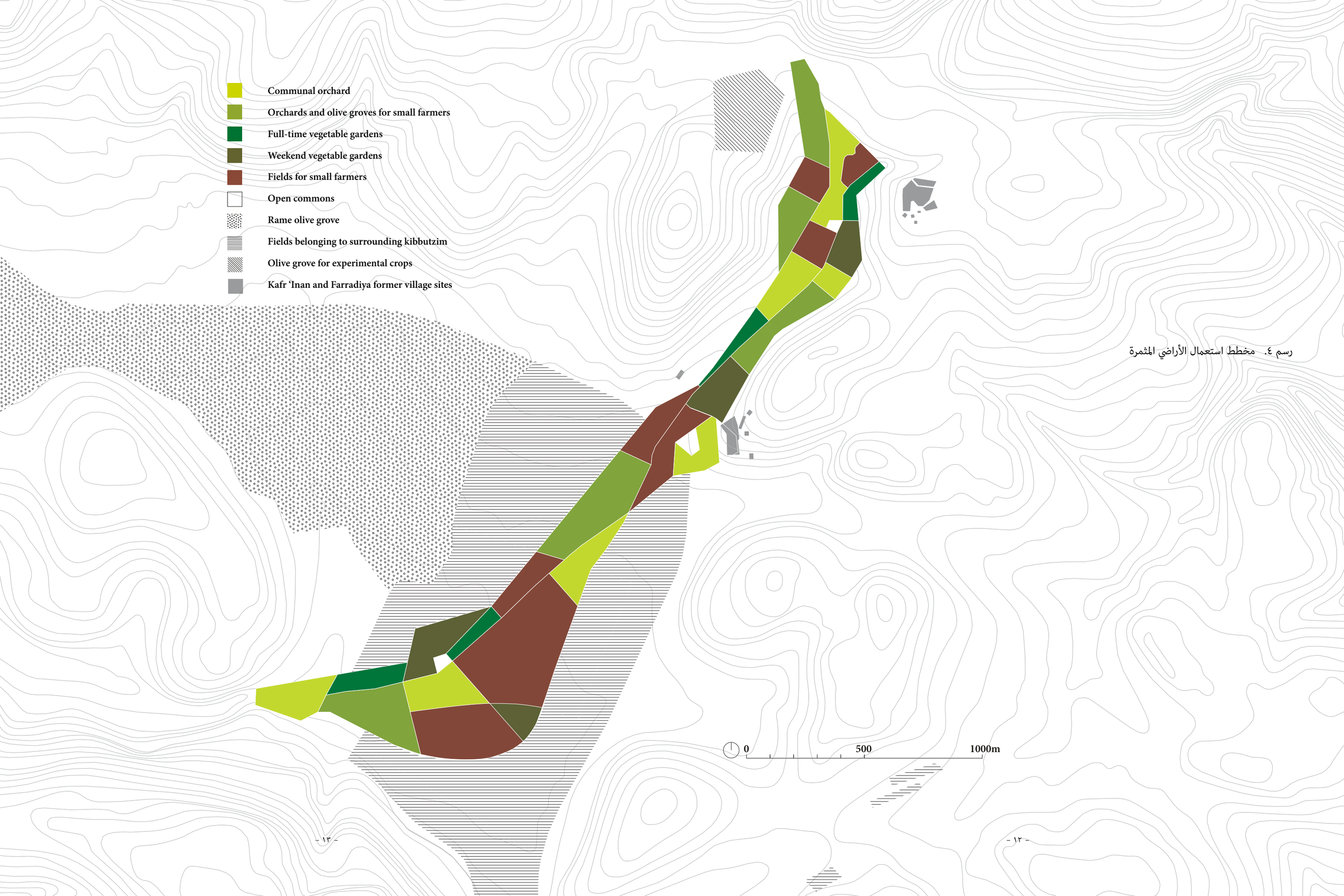

رسم ٤. مخطط استعمال الأراضي المثمرة

- ١٣ -

1 Kafr 'Inan

2 Farradiya

P

2

1

P

P

P

0 100 500 1000m

رسم ٥. شبكة الطرق

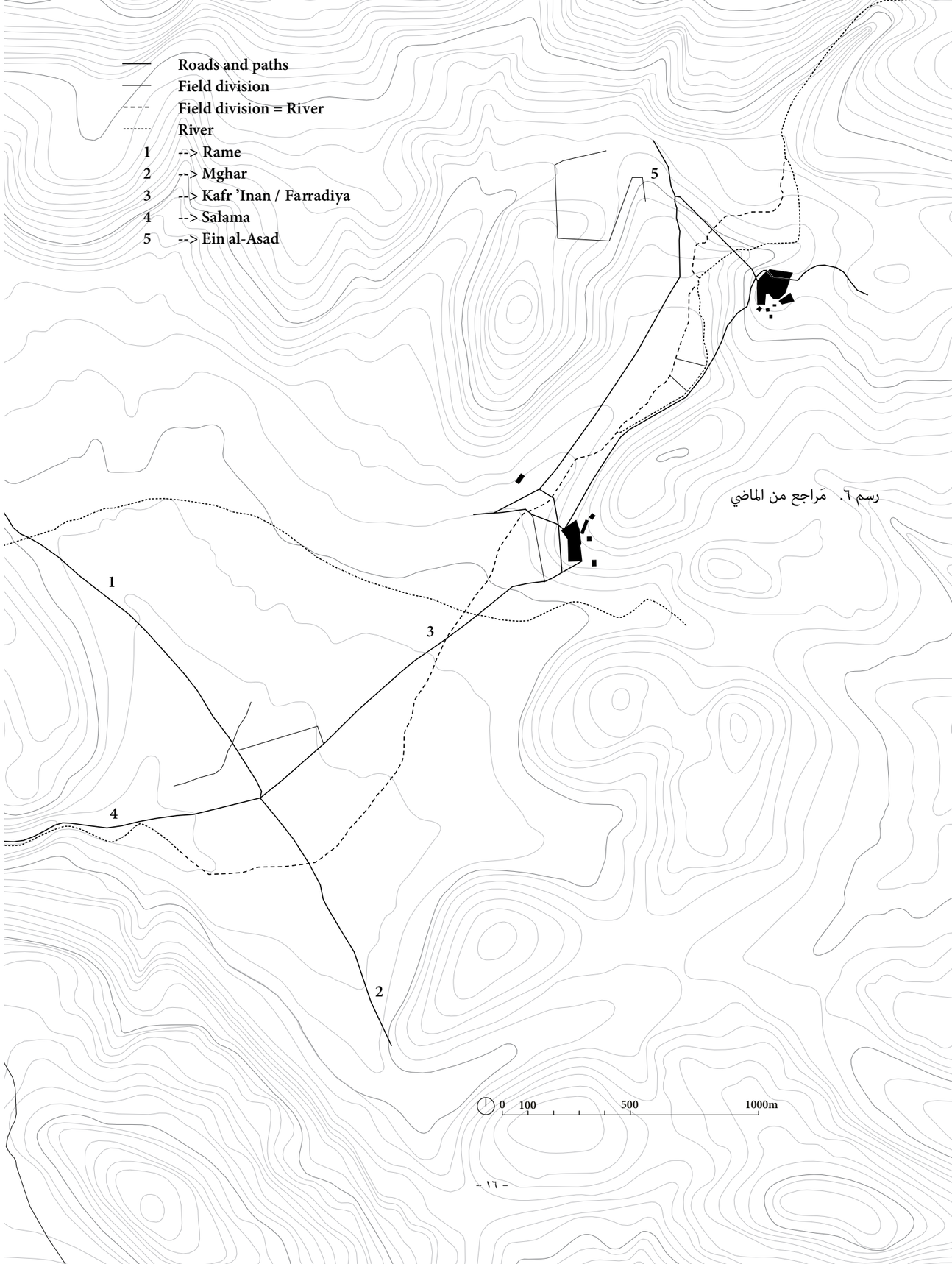

رسم ٦. مَراجع من الماضي

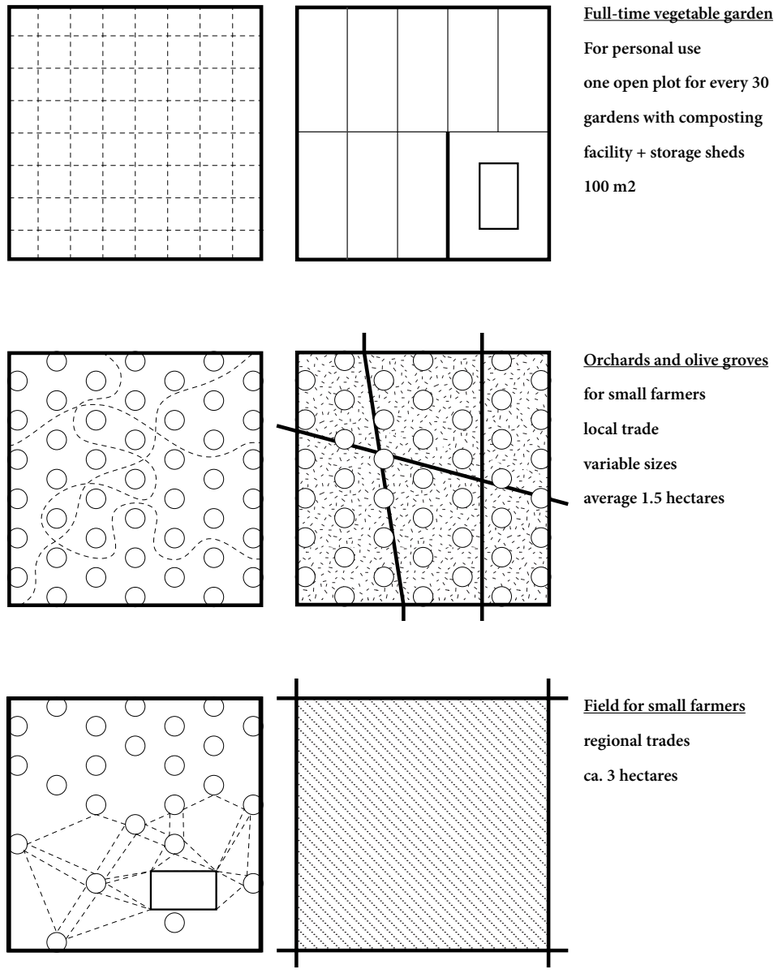

Weekend vegetable garden

For personal use

variable sizes of vegetable plots

in a 4 x 4 m grid

Full-time vegetable garden

For personal use

one open plot for every 30

gardens with composting

facility + storage sheds

100 m2

Communal Orchard

For personal use and local trade

Area from 3.5 to 5 hectares

Trees planted within

7 x 7 m grid pattern

Orchards and olive groves

for small farmers

local trade

variable sizes

average 1.5 hectares

Commons

Market, administrative offices

and information, storage and

toll depot

Field for small farmers

regional trades

ca. 3 hectares

رسم ٧. تضاريس أرض منتجة: بستان خضار دائم، بستان خضار للعطلة الأسبوعية، كروم فواكه وزيتون لمزارعين صغار، مساحة مفتوحة مشتركة، بستان فواكه مشترك للقطف الذاتي

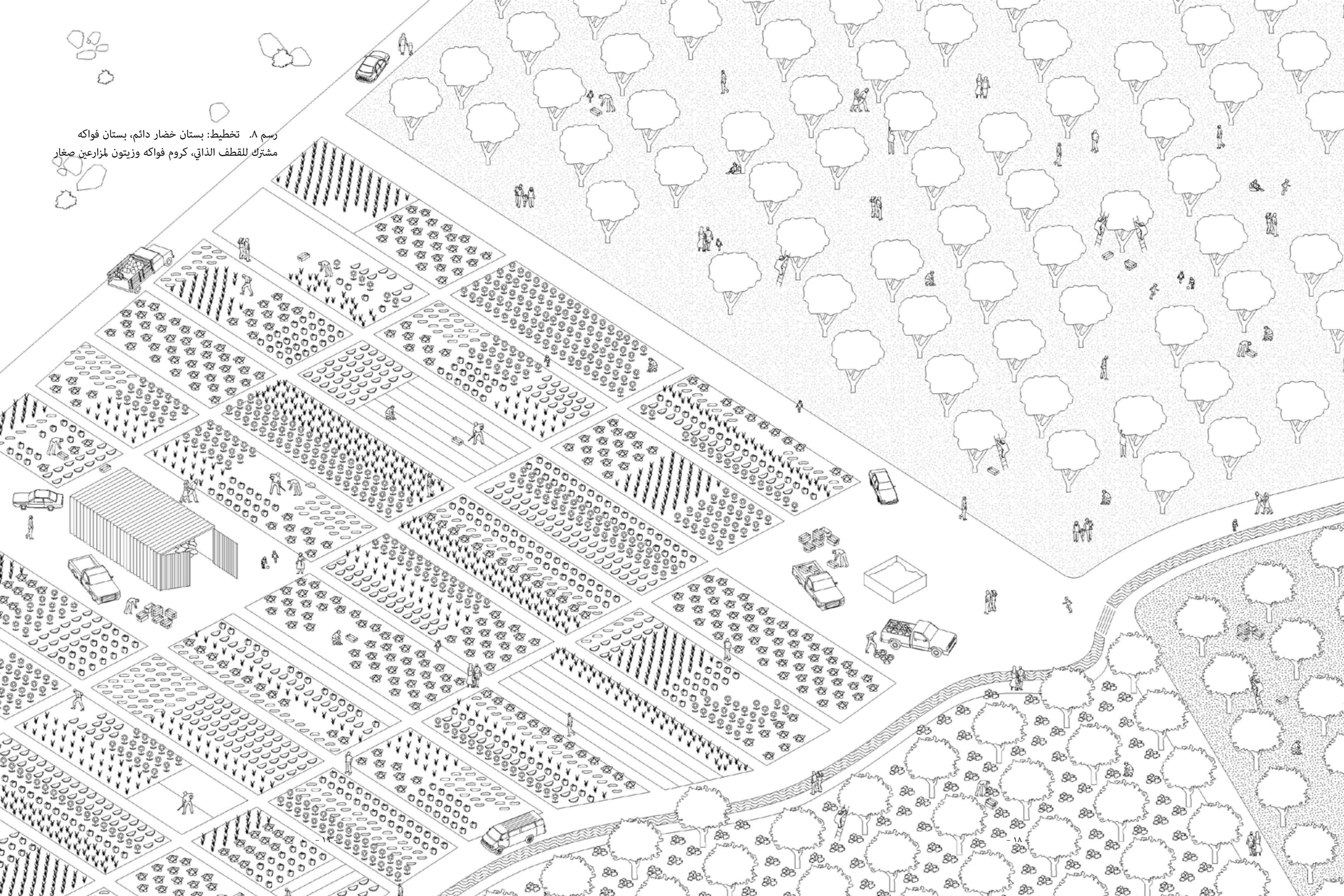

رسم ٨. تخطيط: بستان خضار دائم، بستان فواكه
مشترك للقطف الذاتي، كروم فواكه وزيتون لمزارعين صغار

رسم ٩. تخطيط: بستان خضار للعطلة الأسبوعية، حقول
لمزارعين صغار، والمزروعات الموجودة اليوم

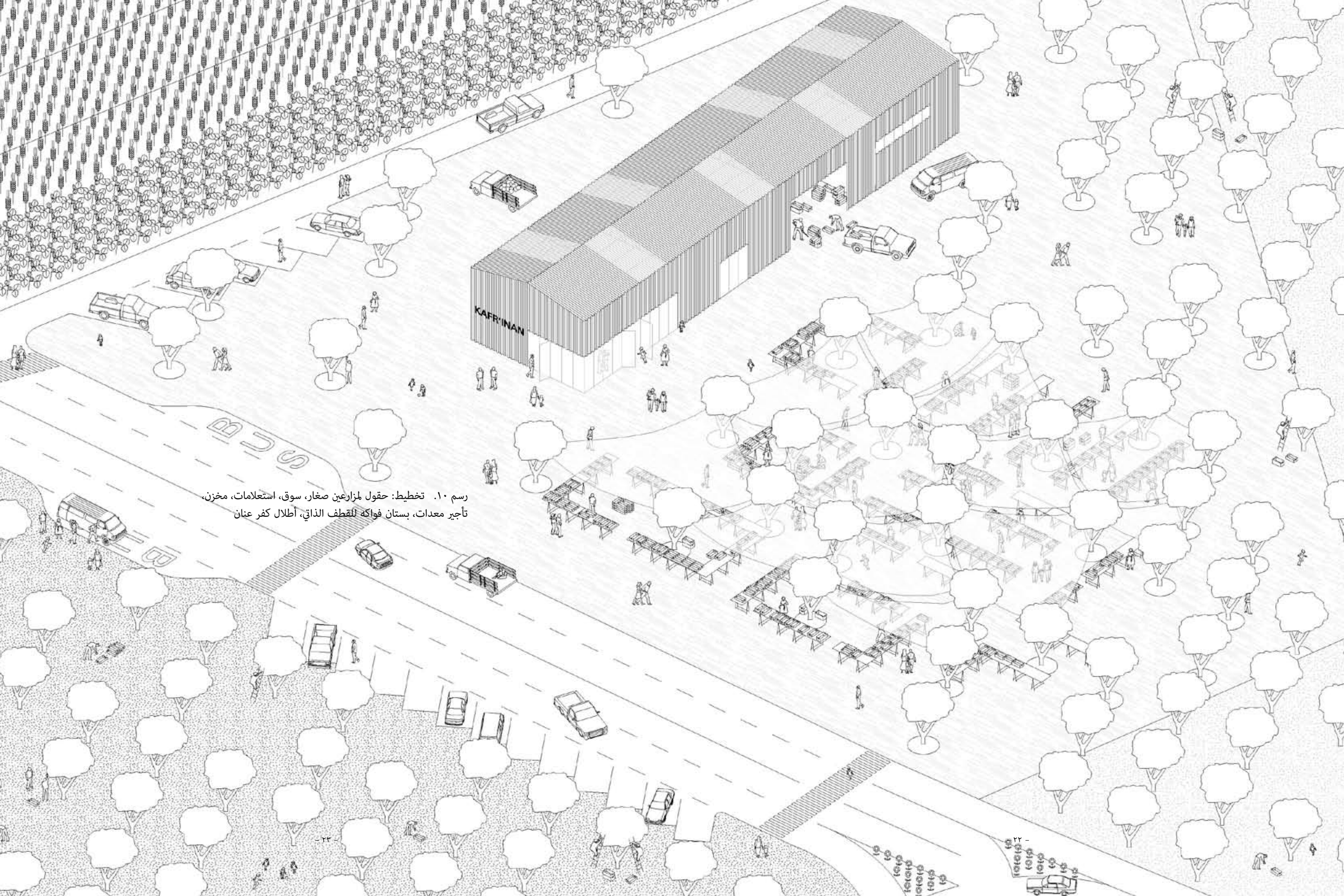

رسم ١٠. تخطيط: حقول لمزارعين صغار، سوق، استعلامات، مخزن، تأجير معدات، بستان فواكه للقطف الذاتي، أطلال كفر عنان

سدِق – مجلة النكبة التي لم تنتهِ، العدد ٦، أيار ٢٠١١
نَحو عودة لاجئين فلسطينيين

هيئة التحرير: عوفر كهانا، أُسنات بار- أور، أيوب أعمر، نورمه موسي، إيتن برونشطين، تومر جردي، عمر الغباري
المحرر: تومر جردي
تصميم: عوفر كهانا وأسنات بار- أور، فرهسيه
إصدار: جمعية "زوخروت" (ذاكرات)
تحرير لغوي وتنقيح: عمر الغباري
الناشران: فرهسيه، زوخروت